مداخلة د/فريدة قاسي
استاد محاضر" ب"
جامعة الأمير عيد القادر للعلوم الاسلامية

الدخول العثماني إلى الجزائر، قراءة في كتاب
كوين شوفاليي: "الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدنية الجزائر (1510–1541)

The Ottoman entry into Algeria, a reading in a book Quinn Chevalier: “The first thirty years of the establishment of a civil state in Algeria (1510-1541)”

ملخص:

إن الكتابة التاريخية حول الوجود العثماني في الجزائر يتطلب زيادة البحث والدراسة والإحاطة بالمصادر التي كتبت عن هذه الفترة، وتعتبر المصادر الغربية من الوثائق والكتابات التي لا بد من العودة إليها، حيث تطرقت إلى الكثير من الأحداث خلال القرنين (16) و(17)، هذه الفترة التي امتازت بالصراع بين الإسلام والمسيحية والمواجهة بين دول المغرب وأوروبا المسيحية.

من هنا جاءت دراستي لكتاب كوين شوفاليي: "الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدنية الجزائر (1510–1541)"، حيث يعد من المصادر المهمة التي أرخت للمرحلة الأولى من التواجد العثماني بالجزائر، واعتمدت أكثر على ما كتبه الأوروبيون حول الاستقرار وطبيعة الحكم العثماني في الجزائر من رحالة وقناصل وجواسيس ورهبان وأسرى وتركوا انطباعاتهم عن السلطة والمجتمع الجزائري خلال حكم العثمانيين.

الكلمات المفتاحية:

كويين شوفالي– الكتابات التاريخية– الوجود العثماني– مدينة الجزائر

smmary:

Historical writing about the Ottoman presence in Algeria requires increased research, study, and knowledge of the sources that were written about this period. Western sources are considered among the documents and writings that must be returned to, as they touched on many events during the 16th and 17th centuries. These The period was characterized by the conflict between Islam and Christianity and the confrontation between the countries of the Maghreb and Christian Europe Hence my study of Quinn Chevalier's book: "The First Thirty Years of the Establishment of a Civil State in Algeria (1510-1541)," as it is considered one of the important sources that chronicled the first phase of the Ottoman presence in Algeria, and I relied more on what the Europeans wrote about stability and the nature of Ottoman rule in Algeria. Travelers, consuls, spies, monks, and prisoners left their impressions of the Algerian authority and society during the rule of the Ottomans.

key words:

Quinn Chevalley - Historical Writings - The Ottoman Presence - The City of Algiers

أولا –مؤلف الكتاب وسبب التأليف:

كورين شوفالييي فرنسية الجنسية جزائرية المواطنة ولدت في 5 جوان 1955م، مؤرخة جزائرية وروائية[1]، والدها "جاك شوفالييي" –رئيس بلدية الجزائر العاصمة– عاشت بالجزائر طوال حياتها وهي واحدة من الأقدام السوداء.

صدر الكتاب سنة 2007م عن ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، وهو كتاب متوسط الحجم (عدد صفحاته بما في ذلك الهوامش والفهرسة البيبلوغرافية وملحقين).

ترجمه عن الفرنسية جمال حمادنة وهو جمال الدين إبراهيم محمد حماد، ضابط مصري شارك في حركة الضباط الأحرار، ولد بالقاهرة في 20 ماي 1921م، وتوفي في 27 أكتوبر 2016، أصدر عدة كتب عن ثورة يوليو وأسرارها حتى لقب بمؤرخ الثورة المصرية.

وعن سبب تأليف الكتاب تقول شوفالييي: "وأردنا تسليط الضوء على بداية فترة حكم الوصاية على مدينة الجزائر وسنرى فيما بعد كيف تمت ولادة هذه القوة الجديدة التي مهد لها عروج بربا روس وأكملها من بعده أخوه خير الدين الذي يعتبر الصانع الحقيقي لها"[2].

وبالتالي فالفترة موضوع الدراسة مهمة (1510–1541) لأن مدينة الجزائر انتقلت تحت حماية العثمانيين لأسباب سياسية واستراتيجية قصد التصدي لخطر التحرشات الاسبانية بالسواحل الجزائرية ودور الأخوين عروج وخير الدين.

بالنسبة للمصادر التي اعتمدتها كوين شوفالييه (شرح المظاهر التي ميزت مدينة الجزائر خلال القرن (15م) وهي مصادر عربية (البكري، ابن نوفل، الادريسي، ابن خلدون)، وهي في نظرها قليلة، أما القرن (16م) فقد اعتمدت وثيقتين هامتين: غزوات عروج وخير الدين التي ترجمها فونتير

---

[1] كتبت روايتين "فتاة تاسيلي الصغيرة" و"ليلة القرصان" وكلا الروايتين من إصدارات دار القصبة.

[2] كورين شوفالييه: "الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدنية الجزائر (1510–1541م)، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص4.

دي برادي، وأعمال "فراي دييغو هايدو"[1] "طوبوغرافيا وتاريخ ملوك مدينة الجزائر" إضافة إلى الأب "بيردان"[2] حيث تحدث عن تاريخ القرصنة وتنوعها في شمال افريقيا وهذا من خلال تفسير مصطلح باربارياو نظام القرصنة في الدول المغاربية وأساليب العمل القرصاني ونتائجه ومعاناة الأسرى المسيحيين وكيفية افتدائهم[3].

كما تصفحت كورين كتابات الأسرى (سير فونتيس) و(دارندو) رغم أن أسرهما كان متأخرا عن موضوع الدراسة (1574م) و(1640م)، كما اعتمدت على ما سمتهم بالعلماء الذين قدموا إلى الجزائر مع الاحتلال الفرنسي أمثال بيير بروجر وديلفوكس ودي غرامونت الذين كان لهم الفضل –على حد تعبيرها– في نقل بقايا العادات والتقاليد الخاصة في تلك الفترة[4].

2–محتوى الكتاب وموضوعاته:

يحتوي الكتاب على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

الفصل الأول: مدينة الجزائر في بداية القرن السادس عشر.

الفصل الثاني: مدينة الجزائر تستنجد بعائلة بربروسا.

الفصل الثالث: مدينة الجزائر في سنة 1531م.

الفصل الرابع: مدينة الجزائر تحت خلافة وسن آغا.

الفصل الخامس: هجوم شارل الخامس على مدينة الجزائر.

خاتمة بعنوان: الجزائر المحروسة.

---

[1] راهب اسباني تعرض للأسر من طرف رياس البحر الجزائريين سنة 1578م، بينما كان يستقل سفينة تابعة لقراصنة مالطة، تم إطلاق سراحه سنة 1581م اعتمد في كتابه على شهادات حيث سجلها في كتابه "طوبوغرافيا مدينة الجزائر" وأهم ترجمة لأعماله كانت من طرف دي غرامون في الجزء الخاص بملوك الجزائر، لمزيد من التفصيل ينظر: عبد الله حمادي، جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الاسبان"، المصادر، العدد (06)، مارس 2002، ص14–ص15.

[2] ولد بمرسيليا في 8 ماي 1739م من أم يونانية وأب فرنسي كان يعمل كمترجم في العديد من قنصليات فرنسا بالمشرق كما تعلم التركية والعربية بمعهد اللغات الشرقية بباريس، جاء إلى الجزائر (1788–1790) كوفد من طرف الحكومة الفرنسية، من أهم تأليفه "تونس والجزائر في القرن (18م)".

[3] حسن أميلي، "تاريخ باربارياو قراصنتها للراهب بيردان" المجلة التاريخية المغاربية، ع106، 2002، ص176–177.

[4] كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص6–7.

تحدثت شوفالييه في التمهيد عن تأسيس مدينة الجزائر (جزائر بني مزغنة) في النصف الثاني من القرن العاشر من طرف الأمير زيري بن بكني على أنقاض المدينة الرومانية القديمة المسماة: "إيكوزيوم".

وعن فرار الأندلسيين إلى مدينة الجزائر، هؤلاء المهاجرين الذين لقبوا بالموريسكيين، وكيف أن المدينة ظلت محل صراع بين الزيانيين والحفصيين لمدة طويلة[1].

أما في الفصل الأول والذي عنونته بالجزائر بداية القرن (16م) تحدثت كورين عن موقع المدينة الجميل وأنها مركز تجاري وفكري، فقد وصفها الادريسي بأنها مركز تجاري مزدهر خلال القرن (12م)، ووصفها المراكشي بأنها مدينة صغيرة اسمها الجزائر وتنتمي إلى قبيلة بني مزغنة، وتؤكد مقولة جاك بيرك بأن تاريخ المدينة يرجع إلى عصر انطلاق الفكر بها، وأن عبد الرحمن الثعالبي لم يكن المؤسس الأول لمدينة الجزائر بل يمكن أن يكون المؤسس الثاني لها[2].

والمدينة مزدهرة بمساجدها (الجامع الصغير)، جامع (ستي مريم) بالقرب من باب الواد، ولها بابان يفضيان إلى جنوب سهل متيجة وهما (باب عزون)، و(باب الواد)، ويطل مدخل قصر الحكومة على وسط شارع الأسواق تقريبا (الجنينة أو دار السلطان القديمة)، وتوجد قلعة القصبة خلف جامع سيدي رمضان[3].

كما تحدثت عن التركيبة السكانية لمدينة الجزائر ونشاطات السكان واعتمدت قول "لبون الافريقي" بأن هناك أربعة آلاف عائلة من الجزائر، وستة آلاف عائلة في وهران، وثمانية آلاف عائلة في بجاية وثلاثة عشر ألف عائلة في تلمسان، والتقدم والازدهار الرائع الذي عرفته المدينة بعد وصول الاتراك العثمانيين إليها[4].

---

[1] كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص9.

[2] المصدر نفسه، ص11.

[3] المصدر نفسه، ص14.

[4] كوين شوفالييه، المصدر السابق، ص16.

وبالنسبة للموريسك وسمتهم (باللاجئين الاسبان) فقد صنفتهم إلى: التغريون وجاؤوا من مملكة الأراغون في فالنسيا وكاتالونيا.

المودجار وهم آخر من وصل من غرناطة والأندلس وحافظوا على لغتهم الإسبانية وحملوا معهم تقاليدهم الفنية والحرفية إلى مدينة الجزائر[1].

كما تكلمت عن طبقة اليهود والتي شكلت عنصرا آخر من عناصر التجمع السكاني وأنهم سكنوا في شارع السوق الكبيرة بين الشارع والبحر وبالقرب من باب الواد ومقابل السور حيث يوجد هناك معبدهم الرئيسي «الحارة»[2].

والخلاصة أن مدينة الجزائر في نهاية القرن (15م) كانت مدينة سعيدة مزدهرة مسالمة وهي مدينة ذات أهمية متوسطية ويحكمها مجلس أعيان برجوازي وربما سيجعلها غناها هذا عاصمة لدولة ما في يوم ما...»[3].

وفي الفصل الثاني بعنوان: "الجزائر تستنجد بعائلة بربروسا"، تقول شوفالييه أن المدينة عاشت اضطرابات سنة 1510 كان سببها اختلاف لآراء حول قضية دفع الضرائب ووجود الحامية الاسبانية[4]، وكان سليم التومي حاكما لمدينة الجزائر الذي أعلن ولاءه للقائد الاسباني "بدرو نافارو"، الذي احتل عاصمة الحماديين –بجاية–.

وفي معرض حديثها عن عروج بربروس تقول أن انتصارات مدوية أحرزها أربع إخوان –بعد دخولهم الإسلام– ودخلوا في خدمة سلطان استانبول وقاموا بحملات جريئة على شواطئ اسبانيا (قصد مساعدة مسلمي الأندلس) وكانوا يحملون حوالي (10) سفن عليها حوالي (1000) رجل جاعلين القرصنة حرفة لهم.

---

[1] المصدر نفسه، ص16.

[2] المصدر نفسه، ص18.

[3] المصدر نفسه، ص20.

[4] اعتمدت رأي دلفوكس في مقاله "الجزائر دراسة أثرية طوبوغرافية" عن هذه المدينة في العصور الرومانية، العربية والتركية، المجلة الافريقية (1875-1878).

وقد لجأ الإخوة بربروس إلى مدينة جيجل حيث قاموا بطرد الجنوبيين وأسسوا مملكة صغيرة، والتحق بهم أكثر من (20 ألف) من الأهالي والبربر[1].

وقد أوفد سكان مدينة الجزائر عدة شخصيات بارزة لإقناعهم بالقدوم لتخليصهم من مضايقة وظلم المسيحيين وتهديم هذه القلعة، وقد قبل الإخوة بربروس ورأوا في ذلك فرصة للاستيلاء على مدينة الجزائر الهامة والفنية جدا والمأهولة بالسكان بأنها **** ومناسبة لعمليات القرصنة[2].

وغلب موضوع القرصنة على ما تناولته شوفالييه في الفصل الثالث حيث أوردت أن "ظاهرة استيطان البحر الأبيض المتوسط قديمة قدم التاريخ وهي تتألف عادة من النشاط الذي يعتمد على المصادفة والتي أتت لتضيف ثروة مكملة لتلك الثروة الموجودة في مجتمع يحيا دائما في حدود امكانياته وأحس دائما بشوكة البؤس أو الخوف من المجاعة"[3].

وأن القرصنة حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب، وأنها عمل الدولة وبالتالي فالقرصنة والنشاط الاقتصادي عملان مترابطان، وبالنسبة للمسلمين فالقرصنة قبل كل شيء هي شكل من أشكال الجهاد في البحر، ولو أنها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية، والقرصنة الحرفية الأكثر شبها وقربا من القرصنة البحرية التي كانت تمارس حتى ذلك الحين وارتفعت في مدينة الجزائر إلى مستوى مؤسسة اجتماعية محمية ومنظمة بواسطة الحكومة القانونية التي حافظت على وجودها خلال أكثر من ثلاثة قرون والتي انتهت باختصاصها واحتكار ربحها[4].

وعن موضوع الأسرى والذي سمته كورين "بالبضاعة البشرية" تقول بأن الرجال كانوا البضاعة الرائجة الأكثر قيمة، وهذه البضاعة تكررت كثيرا في غنائم القراصنة، ففي سنة 1533 كان يوجد في مدينة الجزائر نحو 7 آلاف من العبيد الأوروبيين حيث شكلت عملية أسرهم وبيعهم وشراءهم

---

[1] ساندر رانخ ويدنيس، تأسيس حكومة الوصاية على مدينة الجزائر، ج1، ص53 –نقلا عن كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص26.

[2] فراي دييغو هايدو، تاريخ ملوك مدينة الجزائر، ترجمة دي غرامونت، الجزائر، 1883، ص17.

[3] كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص49.

[4] دي غرامونت، دراسات جزائرية، القرصنة، العبودية اقتناء الأسر في مدينة الجزائر، ص3، نقلا عن كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص50.

ثانية قطاعا قويا هاما في النشاط التجاري، وكان سوق "البازستان" بالقرب من الجنينة سوقا هاما لبيع وشراء العبيد[1].

وخلال الفصل الرابع تكلمت عن الجزائر وقت خلافة حسن آغا، فبعد أن سافر خير الدين[2] إلى استنبول سنة 1533م بأمر من السلطان العثماني تاركا المدينة تحت حماية أحد الرجال الموثوق بهم المعروف بحسن آغا[3].

كان متعقلا وكريما ومتسامحا في حكمه متفرغا بالكامل لمصلحة المملكة ومن أجل رفاهية ورخاء الناس، فنشر العدل والانصاف وحمى الدين وإن قوته وشجاعته جعلته بشكل عام محبوبا ومحترما[4].

حكم حسن آغا مدينة الجزائر لمدة ستة سنوات وأعاد لها العدل، حيث لم تكن تتسم بالعدل هذا في زمن أي باشا قبله.

لقد تكلمت كورين عن استعدادات حسن آغا لمواجهة حملة شاركان على مدينة الجزائر حيث أمر بتثبيت المدافع على الأسوار القديمة وإعادة بناءها، كما أوردت كورين تقرير الجواسيس الاسبان عن تسليح المدينة.

داخل الفصل الموجود في الأعلى يوجد مدافع حجرية (منجنيقات و5 أنصاف مدافع أو بما يسمى صقور).

يوجد مدفعان وصقران (نصفا مدفع) فوق القلعة الكبيرة من مدخل باب الواد

في زاوية مدخل باب الواد من جهة البحر يوجد 4 مدافع.

---

[1] كورين شوفالييه، المصدر نفسه، ص53.

[2] تقول كوين أن خير الدين –باشا الجزائر– غادرها بعشرة سفن شراعية حربية وعشرة فيوستات ووصل إلى استانبول ومعه 26 سفينة.

[3] ولد في سردينيا حيث قبض عليه في االحدى حملات القرصنة لخير الدين بربروس وأصبح حسن الشخص المفضل عنده، ثم جعله حرا وأوكل إليه عدة مناصب قيادية عسكرية نظرا لشجاعته وحكمته، وقد رجع إلى مدينة الجزائر –بعد أن ولاه مدينة قسنطينة– سنة 1535 لاستعادة حكومة المدينة بعد سفره إلى استنبول، ينظر كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص87.

[4] كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص87.

من آخر نقطة حتى باب المدخل في مواجهة الجزيرة يوجد 17 قطعة مدفعية.

بين باب الجزيرة والجامع الكبير يوجد 10 قطع من البرونز و4 قطع مدفعية من الحديد وواحد من هذه الأخيرة المسمات حفنية (مدفع قديم).

وقد أحسن الباشا حسن آغا اختياره لمساعده وخليفته ملك تلمسان –المضغوط عليه من طرف الاسبان– وطلب منه أن يبعث له ألف جندي تركي وثلاثين أو أربعين مدفعية، وهذا جزء قليل من الأشياء التي حضرها حسن آغا لمجابهة الحملة[1].

أما الفصل الخامس والأخير فقد خصصته الكاتبة لحملة شارل الخامس على مدينة الجزائر سنة 1541م واعتمدت على المصدر الوحيد لهذه الحملة وهو مخطوط "محكة" (rahekma)، ففي يوم الأربعاء 19 أكتوبر 1541م أعلم الجنود الذين يراقبون مرتفعات بوزريعة "حسن آغا" بأن الأرمادا الاسبانية بسفنها الكثيرة التي تشبه الجبال في علوها ترسو في ميناء مدينة الجزائر[2].

ثم ذكرت تمركز المدافعين عن المدينة حيث امتلأت الأسوار بالرجال المسلحين بالبنادق والسيوف وبالرماح والحراب والأقواس وكذلك بالرايات الحربية من كل الألوان، وتمركز الضباط والملازمون التابعون للباشا حسن آغا في مواقع: باب عزون –باب الواد–باب البحرية–الساحة الواقعة بين القلعة والقصبة[3].

أما الأرمادا الاسبانية فكانت نقطة نزولها بالقرب من مصب وادي الحراش، وتذكر أن المؤرخين الأوروبيين اتفقوا على أن انهزام الحملة يعود إلى عدم اكتراث الإدارة الاسبانية التي لم تزود الجيش بالخيم والملابس الدافئة، من جهة أخرى ما فعله الامبراطور شارل الخامس بإرساله رسول لحسن آغا يعرض عليه تبديل المدينة مقابل جائزة كبيرة جدا وللأتراك، فإذا كان قد جهز حملته معتمدا في النصر

---

[1] كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص88-89.

[2] المصدر نفسه، ص91.

[3] المصدر نفسه، ص92.

على أهله في الخيانة فقد وجد ردا صريحا من طرف حسن آغا بأن طلبه هذا حماقة كبرى وأنه يتمنى النصر بإرادة الله عز وجل وأن يكسبه هذا النصر المكانة المرموقة والشهرة الأبدية[1].

الخاتمة:

تكلمت كورين عن القصص والروايات التي تحمل طابع الاشاعات حول انتصار حسن آغا على حملة شارل الخامس وأن مدينة الجزائر أصبحت تسمى منذ ذلك بالجزائر المحروسة، وأن مدينة الجزائر استحقت هذا اللقب وستواصل في المستقبل سعادتها ويخاف منها الجميع، وشيئا فشيئا فقد فرضت قوانينها وسيطرتها على البحر وسارت في طريق النمو والغنى حتى أصبحت قبل نهاية العصر المدينة الأكثر قوة من بين المدن الجديدة في حوض البحر المتوسط[2].

النقد والتقييم:

لقد اعتمدت كورين شوفالييه في دراستها على الشهادات والمصادر الأوروبية بشكل كبير بالمقابل أغلقت المصادر المحلية –ما عدا القليل منها– وبالتالي وقعت في مغالطات تاريخية كثيرة منها:

انضمام الجزائر تحت حكم العثمانيين أو ما أسمته بنظام الوصاية لم يكن بدافع دفع الضريبة أو زيادة قوة الأتراك في بلاد البربر كما أوردت في ص37: "من الطبيعي جدا لمدينة إسلامية مهددة من قبل المسيحية أن تضع نفسها تحت حماية أمير المؤمنين (الخليفة العثماني) لذا فقد طلب خير الدين من السلطان العون والمساعدة مقابل الاعتراف بسلطانه أو ضمان زيادة قوة الأتراك في بلاد البربر[3].

والرواية الصحيحة أن سكان مدينة الجزائر هم من طلبوا الحماية، ففي مدة إقامته في جيجل – عروج– كتب إليه أهل الجزائر يرغبون في القدوم عليهم وجهاد عدوهم المجاور لهم في الحصن الكائن بالجزيرة وكان قد أضر بهم غاية الضرر...[4].

---

[1] كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص93-94.

[2] المصدر نفسه، ص99-100.

[3] تعتمد رواية هايدو في كتابه تاريخ ملوك الجزائر، ص35.

[4] بالنسبة لوفد مدينة جيجل والذي عرض على عروج المساعدة ودفع ضرر الإسبان عن المدينة، ينظر: عبد القادر فكاير: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره (1505-1792م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص139.

تصف كورين شوفالييه عمليات الجهاد البحري بالقرصنة وتماثلها بالتي اشتهرت في أوروبا على يد البنادقة والجنوبيين وفرسان مالطا وتستشهد بنص "دييغو هايدو" عندما يعود القراصنة تكون مدينة الجزائر كلها فرحة ومسرورة لأن التجار يسترون العبيد والبضائع التي حملها القراصنة إليهم، وهؤلاء لا هم لهم سوى الأكل والشرب واللهو"[1].

تقول شوفالييه واصفة عروج بأنه كان قرصانا من قراصنة البحر وأن جماعته هم مجموعة مقاتلين وليس جيشا منظما[2] أما خير الدين بربروس فتسميه بالقرصان الرهيب المرعب[3].

وأخيرا فإن كورين شوفالييه وبتغليبها للروايات والشهادات الأوروبية والتي أخذت نسبة 80% من دراستها تكون قد جانبت الموضوعية العامية في تناول الأحداث وتميل إلى الذاتية والتعصب أكثر في مواقفها اتجاه الكثير من الأحداث التاريخية.

أما بالنسبة لنص الرسالة التي بعث بها أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول فقد نشرها عبد الجليل التميمي في المرحلة التاريخية المغاربية، عدد (1976) ص95-101 تحت عنوان: "رسالة أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول في 1519م".

[1] دييغو هايدو، طوبوغرافيا الجزائر، ص49 نقلا عن كورين شوفالييه، المصدر السابق، ص53.

[2] المصدر نفسه، ص34.

[3] المصدر نفسه، ص44.